أضواء على حياة ومواقف الشيخ عبد الحليم بن سماية وجهوده الاصلاحية (1866-1933)

د.امحمد دراوي*

الملخص:

يعتبر الشيخ عبد الحليم بن سماية (1866-1933) من أعلام الإصلاح في الجزائر خلال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ،ينتمي للرعيل الأول الذي أسس للفعل الإصلاحي رفقة رواد الإصلاح كالمجاوي وابن الموهوب وابن الخوجة ،وعلى الرغم من كونه قليل التأليف والتحرير الا انه كان مؤلفا للعقول بالتعليم والإصلاح .حيث اشتغل مدرسا لمواد الفقه واللغة في المدرسة الثعالبية وفي نفس الوقت إماما وخطيبا بمساجد العاصمة.

تميز الشيخ ابن سماية إضافة إلى ضلوعه بعلوم عصره بالإلمام بما يجري من حركية ثقافية وإصلاحية مشرقا ومغربا ،له اتصال واسع بأساطين الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي وهو من مستقبلي ومريدي الشيخ محمد عبده ،اتصل به بواسطة تأليفه وما يكتب عنه في المنار واتصل به ولازمه خلال فترة إقامته بالجزائر في صائفة 1903م.

عرف ابن سماية بثباته على الحق وانتصاره للقضايا العادلة ومواجهته للإدارة الاستعمارية ،ويعرف ذلك من خلال مقالاته التي كتبها في جرائد تلك المرحلة ،كما شهد له معاصروه بمعارضته الشديدة لقانون التجنيد الإجباري الذي سعت السلطات الاستعمارية لتجسيده منذ 1907م على المسلمين الجزائريين ،ولعله من الأسباب التي دفعته لطلب السفر بنية الإقامة ببلاد الشام وربما كانت ضغوط الحياة وألم الاحتلال من العوامل التي أثرت سلبا على صحته النفسية والعقلية في آخر عمره ،ولازمه حتى وفاته في 1933م.

* - باحث في التاريخ الحديث والمعاصر جامعة الجيلالي بونعامة-خميس مليانة.

الكلمات المفتاحية: عبد الحليم ابن سماية؛ الإدارة الاستعمارية؛ لقانون التجنيد الإجباري؛ بلاد الشام.

Abstract:

Sheikh Abdel Halim Ben Smaia (1866-1933) was one of the reformist figures in Algeria during the end of the 19th century and the beginning of the 20th century. He belonged to the first generation, that founded the reform work with the pioneers of reform such as El-mjawi and Ibn El-mouhoub and Ibn El-Khoja, Although he didn't write too many books but he guided a lot of minds by teaching and reforming because he worked as a teacher of jurisprudence and Arabic language in Ettalibia school and as an Imam in Algiers mosques.

Shaykh ben Smaia has been distinguished by his knowledge about the cultural and reformist movement from the east to the west; He had a wide connection with the leaders of the reform movement in the Islamic world. He hosted Sheikh Mohammed Abdou during his stay in Algeria in the summer of 1903; Ben Smaia knew Mohammed Abdou through his writings and also through what has been written about him in El-Manar magazine.

Ben Smaia has been known for his persistence on the right and justice, he faced the colonialism and that appeared through the articles he wrote in that period's newspapers, also he objected the Compulsory Recruitment Law that the colonialism tried to apply on Algerian Muslims since 1907, it might be one of the reasons that made him demand leaving the country to Syria, hard life conditions and colonialism's tyranny are some of the factors that affected negatively his mental and psychological health in his last years until he died in 1933.

Keys word: Sheikh Abdel Halim Ben Smaia; jurisprudence; colonialism; newspapers; Algerian Muslims.

مقدمة:

يُعدُّ الشيخ عبد الحميد بن سماية واحدا من روّاد الإصلاح الإسلامي في الجزائر خلال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حمل لواء الإصلاح

التربوي والاجتماعي في مدينة الجزائر،فاشتغل في حقل التعليم مدرسا بالمدرسة الثعالبية بالعاصمة وواعظا ومرشدا بالجامع الجديد بنفس المدينة، تأثر بشيخ المصلحين في عصره الإمام محمد عبده، فنسج على منواله واقتفى أثره حتى عد من أركان حزبه الإصلاحي في الجزائر،كتب في الصحافة العربية بعض المقالات التي ضمنها أفكاره الإصلاحية في شؤون مختلفة، وتميزّت كتاباته بالجرأة والصدق وقد عكست مواقفه من قضايا عصره.

لم تأخذ شخصية الشيخ ابن سماية وأعماله على قلتها حظها من الدراسة و البحث، ولا تزال الكثير من الجوانب في حياته ومواقفه بحاجة إلى البحث والتمحيص، وهنا ينبغي التنويه بجهود بعض المؤرخين الذين بحثوا في الموضوع كتلميذه الشيخ المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي والدكتور أبو القاسم سعد الله ود.مولود عويمر المهتم بتراث الحركة الإصلاحية .

قادتني رحلتي إلى مركز الأرشيف في ما وراء البحار بفرنسا خلال سنتي 2011و2012م للوقوف على بعض الوثائق الأرشيفية التي تخص النخبة الإصلاحية ومنتسبي المدرسة الثعالبية، وهي عبارة عن وثائق وتقارير إدارية، فأردت أن أقدمها للباحثين لعلها تشكل إضافة إلى الجهود المبذولة لإماطة اللثام حول بعض الجوانب في حياة الشيخ ابن سماية وهي ضمن الملف :/14H44

أولا-عصر ابن سماية :

ـعاش الشيخ عبد الحليم بن سماية بين الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين (1866-1933)، وهو ما جعله يكون شاهدا على عصره، الذي شهد اكبر التحولات بالجزائر والعالم العربي والإسلامي، فعلى الصعيد الداخلي، عاصر في طفولته أواخر عهود المقاومات الشعبية بأمجادها وانتكاساتها وتداعياتها المختلفة، كما عاصر في شبابه وكهولته، تلك التحولات السياسية والاقتصادية والثقافية العميقة التي دشنها الاستعمار في ظل الجمهورية الثالثة، من خلال تكريس واقع الاحتلال الشامل، الذي استهدف بعد تحقيق السيطرة على الأرض، هدم المنظومة الثقافية الجزائرية من أساسها، وتعويضها

بالمنظومة الاستعمارية القائمة على التجنيس والإدماج وطمس الهوية العربية الإسلامية للمجتمع الجزائري ومقوماته الحضارية .وهكذا فان الظروف والأقدار قد وضعت تلك النخبة ومنها مترجمنا –بحكم مركزه الثقافي والاجتماعي – في موقع المصلح الذي تقع على عاتقه مهمة الذود عن الملّة وحماية المجتمع من الانهيار والتفسخ.

كما عاصر الشيخ بن سماية على الصعيد الخارجي، بواكير النهضة العلمية والأدبية والإصلاحية التي امتد إشعاعها عبر أرجاء العالم الإسلامي من الملايو إلى المحيط الأطلسي، فعاصر رجال الإصلاح واحتك برجال الفكر والأدب، واتصل بشيخ المصلحين محمد عبده[1] وتلميذه رشيد رضا[2].

ينفرد الشيخ بن سماية عن معاصريه باهتمامه بالفلسفة [3]، فشد الرحال لأجل التعمق في متاهاتها وكتب فيها وحاضر في مؤتمر المستشرقين حول "الفلسفة في الإسلام"، محاولا تصحيح المفاهيم المغلوطة حولها بعيدا عما كان يعتقده البعض عنها بوصفها من العلوم العقلية المعقدة وضربا من ضروب الزندقة والدجل.

1-نبذة عن حياته :

هو الشّيخ عبد الحليم بن علي بن عبد الرحمان بن حسن خوجة وخدوجة بنت امير خوجة، وتدعى خداوج من آل الشيخ مصطفى بن لكبابطي اخر مفاتي المالكية بالجزائر على عهد الاتراك[4]،ولد في الثاني من شهر سبتمبر سنة 1866 م[5]، ينتمي لعائلة من أشهر العائلات العاصميّة، المنحدرة أصلها من بلدة أزمير التركيّة، وتنتسب إلى حسن خوجة قاطع السكة بدار الإمارة على عهد الأتـراك،اعتنى والده بتربيّته تربية دينيّة وخلقيّة سليمة، فعهد به إلى كتاتيب القرآن ومجالس العلم، ينهل منها شتّى المعارف والعلوم الدينيّة واللّغوية (كالعربية والفقه والتوحيد ..) وعلوم أخرى (كالفلك والمنطق والحساب...) التي كانت سائدة في عصره،ثم انصرف إلى دراسة الفلسفة فشدّ الرّحال إلى تونس ليتلقّى العلم على يد الشيخ محمد بن

عيسى الجزائري، وكان صديقا لأبيه، كما أخذ عن الشّيخ محمد المكّي بن عزّوز، خلال زياراته المتكررة من تونس إلى الجزائر.[6]

تشير الوثائق إلى أن الشيخ عبد الحليم بن سماية أصيب بمرض عقلي منذ العام 1930 م،ففي شهر ماي من تلك السنة طلب الشيخ من إدارة المدرسة الثعالبية التي يشتغل بها، عطلة مرضية لمدة شهرين، أرفقها بشهادة طبية من الدكتور بوركايب، ومنذ ذلك الوقت تدهورت صحة الشيخ بشكل لافت، وتشير التقارير المختلفة الى "انه لا يتمتع بكامل قواه العقلية".[7]

في شهر نوفمبر من سنة 1930 اي خلال الدخول المدرسي للسنة الدراسية 1930-1931 لم يطرأ أي تحسن على صحة الشيخ، بل تشير بعض التقارير إلى انّه صار لا يكترث لحاله وهندامه، وانه يُرى دوما يسير راجلا أو على صهوة جواده ذهابا وإيابا خارج العاصمة، نحو الدويرة وبوفاريك والبليدة وحتى المدية [8]، ما دفع بابنه إلى مراسلة الإدارة لتمديد العطلة المرضية ثلاث أشهر أخرى .وهو الأمر الذي دفع بإدارة المؤسّسة لاستخلافه بأحمد بن زكري وحمود وبن زراق. توفي الشيخ بن سماية في 5 رمضان 1351هـ/الموافق ل1933/1/2.[9]

ثانيا-ابن سماية العالم المعلّم:

تولّى الشيخ ابن سماية خطّة التّدريس بالجامع الجديد في نوفمبر سنة 1892م [10]خلفا لوالده علي بن سماية الذي تخلى عن التّدريس لدواعي صحيّة، وبإفادة من المفتي الحنفي محمد بوقندورة [11]،كما قدم طلبا للالتحاق بالمدرسة الثعالبية في عهد مديرها السيد "دولفان" بتاريخ 3 سبتمبر 1895م، وقد جاء في نص الرسالة قوله:" إني أقدم رغبتي لديكم في أن أقلد فيها خطة التدريس فيما تشاءون من العلوم العربية.." كما ابرز مركز أسرته في العاصمة بقوله :"ولم يعرف عني ما يشينني بين الناس مذ عقلت، على إني ابن عائلة أصيلة مشهورة بالفضل في بلادنا .." [12].

التحق بهيئة التدريس بالمدرسة الثعالبية في 04 ديسمبر 1896م [13]،حيث عهد إليه بتدريس مختلف العلوم الدينية واللّغوية كالتّفسير والفقه والنّحو، تشير

بعض وثائق التقييم التي تنجزها إدارة المدرسة بشكل مستمر لموظفيها، إلى تميّزه وكفاءته العالية وذلك من خلال شبكة من المؤشّرات المدرجة في التّقييم[14].

وقد ورد في إحدى الوثائق أن ابن سماية " أستاذ ممتاز،بالغ الوعي،ممتلئ حيوية ونشاط،يظهر الاهتمام بالجدة والتّميز،له شغف واضح بالبحث ويستعمل طرائق جديدة في التّدريس، ويبدو صاحب مشروع نهضوي واعد في مجال الدراسات العربية، مما يثير اهتمام وفضول تلاميذه دوما نحو التجديد،منفتح على المفاهيم الغربية، يتميز بعلاقات جيدة مع الجميع مسلمين وأوربيين وهو ليبرالي وصارم تجاه التقاليد البالية "[15].

يعتبر ابن سماية أول من درّس أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني [16]، ومن أوائل من درس رسالة التّوحيد للإمام محمد عبده،والحق أن هذا ينم على نزعته الإصلاحية وتأثره بمنهج محمد عبده .[17] لقد كان بن سماية من العلماء العاملين، حسب شهادة الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي يقول عنه انّه«عالم عامل غيور على دينه ووطنه مخلص لهما»[18].

ثالثا-صلته بالحركة الإصلاحية والشيخ محمد عبده :

بالرّغم من شدة الطّوق الذي فرضته السلطات الفرنسية على الجزائريين وبالأخص المثقّفين منهم، للحيلولة دون اتصالهم بإخوانهم في المشرق وتواصلهم معهم، بالتّضييق على دخول واقتناء الجرائد العربية، ومنع الحج مرّات عدة، فان ذلك كلّه لم يمنع انتشار الأفكار الإصلاحية ووصول رياح النّهضة والتّغيير، التي أوجدت وسائل شتّى لتبليغها، الأمر الذي ساهم في تبلور الاتجاه الإصلاحي وبروز معالمه بالجزائر.

وعموما فالجزائر لم تكن بمنأى عن الحراك الثقافي وجهود التجديد والنهضة التي شهدها العالم العربي والإسلامي، ولم تكن عقيمة في هذا المجال، فقد برع علماء ومصلحي الجزائر في مجال تجديد الفكر الديني، كالشيخ السنوسي وابن العنابي وحمدان خوجة والأمير عبد القدر وغيرهم ...لكن ظلّت مبادرات أبناءها فردية لم تتح لها فرصة الانتشار والذيوع.

وقد كان ابن سماية عالما بحوادث الشرق، عارفا بخبايا الفكر النّهضوي وإشكالاته، قد عبّرت إحدى الرسائل التي بعث بها إلى صديقه مفتي وهران محمد بن عبد الرحمان عندما استفسره حول اللغط القائم حول أفكار للشيخ محمد عبده الجديدة، فكان مما قاله :" « إلا أنّ الرجل لما كان يتنزّل في كلامه للعقول بما ألفته من الإنكار والأفكار والأنظار في العلوم الجارية، وكثيرا ما يجارى الإفهام بما الفته فتجد الناس في أمرهم بين فرقتين : فرقة ألفت التّعبير بالعبارات القديمة وكادت أن تتخذ عندهم مما يتعبّد بذكره، ولا تحصل البركة والنّفع إلاّ بلفظه، فربما تطرّق إلى أذهانهم انّه زنديق، يحاول بعباراته تدريج النّاس إلى الأخلاق والأفكار الأوربيّة. وفرقة ألفت هذه الأفكار الجديدة والقوانين الحادثة، فهم كلّما سمعوا كلامه اخذ بمجامع قلوبهم وعظم في صدورهم.[19] »

يعد الشيخ عبد الحليم بن سماية من أبناء تلك المدرسة الإصلاحية التي انتهجت منهج الإصلاح الهادئ، القائم على مسالمة الحكومة وعدم الاشتغال بالسياسة، وهو من أهم أتباع ما عرف ب"الحزب العبدوي في الجزائر[20]"، الذي ضم أيضا عددا من الرّواد، كالشيخ محمد بن المصطفى بن الخوجة المدعو ب(المضربة) وعمر بن قدور صاحب الفاروق وعمر راسم وغيرهم، والذين كانوا يتصلون بالمدرسة الإصلاحية بواسطة ما يُنشر في مجلة المنار للشّيخ رشيد رضا،والتي تعتبر لسان تلك الحركة وترجمان أفكارها، "مدد الحياة لنا فإذا انقطعت، انقطعت الحياة عنّا" بحسب تعبيرهم [21] .

جاءت زيارة الشّيخ محمد عبده إلى الجزائر في صيف 1903م، وبالرغم أنها جاءت بإيعاز من السلطات الفرنسية، لتحقيق مآربها وتبييض صورتها أمام الجزائريين والأجانب المتربصين،فإنها خطوة إضافية لمحاولة توثيق عرى التّواصل مع الحراك النهضوي والإصلاحي .

كان ابن سماية من ضمن مستقبلي الشيخ محمد عبده وخاصّته خلال تواجده بمدينة الجزائر، وقد لازمه حله وترحاله، وحضر جل حلقاته ودروسه التي كان يلقيها بمساجد العاصمة، ويبدو أن الشيخ محمد عبده ورغم أن الوضع العام

هاله وعبر عن خيبته بانحسار اللسان العربي في الجزائر، فقد أثنى على ابن سماية وأرسل له وهو في ايطاليا برسالة جاء فيها :" « حضرة الأستاذ الفاضل الشّيخ عبد الحليم بن سماية ...لا يزال يؤنسني مثال من علمك وفضلك، ويعجبني رفيق رقيق من كمالك ونبلك، وما كان ذلك ليفارقني بعد أن صار بضعة منّي، ولو كشفت لك من نفسك ما كشف لي منها، لعلمت مقدار ما أتاك الله من نعمة العقل والأدب، ولعرفت انّك ستكون إمام قومك تهديهم إن شاء الله سبل الرشاد، وتبصّرهم بما يوفّر عليهم الحظّين، حظّ المعاش وحظّ المعاد، وهذا هو أملي الذي اسأل الله تحقيقه، فخذ من الوسائل ما يبلّغك بفضل الله غاية ما يرمي إليه استعدادك...»[22]. كما أن ابن سماية مدح شيخه وضيف الجزائر بقصيدة شهيرة، بعث بها إلى مجلة "المنار" جاء منها :

فأنت لنا شمس تنير على المدى ¤ أتى نورها من غير أن نتطلّعـا [23].

-حول نيته الهجرة إلى بلاد الشام :

تطلعنا إحدى الوثائق الأرشيفية أن الشيخ ابن سماية طلب بشكل رسمي رخصة للسفر إلى بلاد الشام لأسباب عائلية بحسبه، فهل كانت نيته للسفر إلى الشام بغرض الإقامة كما كان الحال بالنسبة لآلاف الجزائريين الفارين من جحيم الاستعمار وإجراءات التجنيد الإجباري، أم هي فعلا لأسباب ظرفية فقط ؟ ليس لدينا من الأدلة ما يكفي للجزم بهذا أو ذاك، لكن لا شك أن السياق العام الذي جاءت فيه رغبته للسفر، توحي بان الشيخ ربما كان في نيته الاستقرار والإقامة ببلاد الشام، فالجو العام في الجزائر في مطلع القرن وبالأخص منذ 1908 م، كما تشير المصادر الفرنسية نفسها هو جو من الخوف والترقب من تداعيات المصادقة على قانون ميسيمي حول تجنيد الجزائريين في صفوف الجيش الفرنسي، وتقابلها دعاية منظّمة من قبل دعاة حركة الجامعة الإسلامية للترغيب في الهجرة إلى الديار الإسلامية وإبراز المزايا التي أعدتها الدولة العثمانية للرعايا الجزائريين، إن الفترة الممتدة من 1908 والى غاية 1911 تعتبر فترة الذروة في الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام، حيث رحلت اعراش بأكملها من بعض أقاليم قسنطينة وتلمسان [24].

نرجح أن تكون تلك الحملة العامة من الأسباب التي جعلته يرغب في الهجرة إلى سوريا برفقة عائلته (18 شخصا)، فقد كتب طلبا بذلك للحاكم العام بتاريخ 17 نوفمبر 1911م [25]، طلب بن سماية زيارة سوريا رفقة ذويه في فترة عطلته الممتدة من 15 افريل إلى 15 جويلية 1912م [26]، لأسباب عائلية بحسب الرسالة (زواج ابنه من إحدى بنات السيد محمد الأكحل السّاكن بسوريا)، موضحا فيها انّه لا ينوي المكوث بسوريا، فهو بحسب رسالته متمسك بالعيش في مسقط رأسه وبين ذويه،وانه لا يوجد سبب يجعله ينوي الهجرة، فهو موظف وميسور الحال.

تشير دراسة عبد الرحمان الجيلالي الى انّه لما:"شعر بتصميم الحكومة على تنفيذه(التجنيد الإجباري)، اخذ يسعى في قطع جميع العلائق التي تربطه بوطنه وأقربائه وقدم استقالته من وظائفه في التدريس سواء في ذلك المسجد الجامع أو المدرسة، وباع مسكنه الذي كان أن ورثه عن أبويه، وعرض أثاث منزله على السّوق وأهدى كتبه ولم يستثن منها سوى المصحف وتفسير الجواهر الحسان، وودّع أصدقاءه واستعد للرّحيل لولا أن وقف في وجهه أهل الجزائر وأعيانها مستعطفين ومتوسّلين قائلين له :إن هجرتنا آنت فإلى من تتركنا؟ فاهتز الشيخ لهذا الموقف المؤثر الرهيب وعدل عن رأيه مكبرا لهم كريم أخلاقهم وخالص وفائهم "[27].

والحق أن ملف الشيخ ابن سماية في الأرشيف الفرنسي لا يتضمن استقالته من منصبه ولا ما دل على بيع بيته وأثاثه ووداع أصدقائه كما أورد الشيخ عبد الرحمان الجيلالي، ورغم التجاذبات بين إدارة المدرسة ومصلحة الشؤون الأهلية حول طلب الهجرة فان الحاكم العام لم ير مانعا من استصدار رخصة السفر للشيخ بن سماية [28]،على أن يستكمل الإجراءات والشروط اللازمة لسفره وتضمان الإدارة تاطير حصصه بالمدرسة خلال فترة غيابه .

رابعا-بعض قضايا الإصلاح عند ابن سماية :

أ/في التصوف:

أدلى الشيخ عبد الحليم بن سماية بدلوه في موضوع التصوّف، وقد خبر الموضوع من خلال صلاته بالمتصوفة كالتيجانية مثلا، غير انه كان يستهجن ما صار اليه بعض المنتسبين للتصوف بغير تقوى ولا علم، فكتب مقالة في كوكب إفريقيا تحت عنوان "الفرق بين الصوفية والمتصوّفة "فيقول :"إلا أن الصوفية سرعان ما حادت عن الجادة وابتعدت عن السبيل القويم، بعزوفها عن طلب الكسب وغلوّها في تقويّة الجانب الرّوحي، ويرى أنّ "الحابل اختلط بالنّابل وذو الأغراض الفاسدة بالمقاصد الصالحة، وانعدام الوازع وتشبّه المبطل بالمحق، فنجد الكثير من السّفاسفة يتشبهون بالفضلاء ليحققوا أغراضهم تحت التظاهر بلباس الشرف وأرباب الجور يتظاهرون بلباس الزهد والعفاف ليصلوا الى مطامعهم "[29].فهو يفرق بين المتصوّفين الصادقين عن غيرهم من الدخلاء، الرّاغبين في المال والنفوذ أكثر من التقرّب الى الله .في وقت صارت مهنة ينتحلها بعض السماسرة ليبتزوا الناس في اموالهم، في ظل الجهل المطبق الذي كانت عليه العامة، كما ندّد بما ينسب الى الصوفية من الكرامات وخوارق العادات، ويرى أن "الأصل عند المتصوفين هو أن التشوق الى مثل هذه الأمور والتطلع إليها، وعد الالتفات إليها من القواطع والشواغل عن الله تعالى وعن الإخلاص وكونها إنما هي من الرعونات النفسانية "[30].

ب/ قضايا التربية والتعليم:

يعتبر ميدان التربية والتعليم أكثر الميادين التي خاض فيها الشيخ عبد الحليم بن سماية، وذلك انطلاقا من ثقافته وطبيعة تكوينه، وتشخيصه لعلل مجتمعه، فهو يرى أن الجهل سبب كل الشرور، وان ما آل إليه الجزائريون من ضعف وتخلف إنما يعود إلى قلة وعيهم بأهمية العلم والمعرفة وضعف إدراك دورهما في نهضتهم، فيقول :"لو انفق الناس على جلب أزهار العلم لوجدوا إليها سبيلا،فيأمرون أولادهم بمخالطة أهل العلم ".[31]

ويقول ايضا :"العلم نافع مطلقا، لان المعلوم إذا كان نافعا فيطلب ويعمل به، وإذا كان ضارا فيهجر ويفر منه ...متى مال العقل الى ما فيه منفعة، من جلب نفع أو دفع ضر إلا وسار في طريق السعادة والإصلاح، ومتى مال الى جلب ضر أو دفع منفعة إلا جلب الشقاء ".[32]

ويرى بن سماية إن" استقامة أحوال الناس مرتبط بالعلم، فكلما كان مصباحه منيرا على دربهم كان كل واحد منهم عالما بماله وما عليه سالكا سبيل الهدى، ملتزما أخلاقيا، وكلما انطفأ مصباح العلم كان كمن يمشي في ظلمة بين الناس فلا يخلو من ان يصطدم حائطا. وهذا مرتبط بعقول الناس ومدى وعيهم لحقيقة واقعهم، لان من الناس من يميل الى الحضيض وليس له وعي " كما يقول "إن العقل بين قوتين جاذبتين إحداهما تجذبه الى العلو، والأخرى تجذبه الى السفل .ومتى غلبت إحداهما عليه استخدمته على قانونها "[33]والسّفل هنا مقصود بها الخلود الى الشهوات ومجاراة أهواء النفس وأغراضها الدنيئة في الغالب، فإذا ما تغلبت واستحكم سلطانها هوى الى الأرذل، وشلت قدراته الذهنية والجسمية.

ويقول في معرض حثه على التحصيل لأبناء جلدته "ألاَ وانّ العقول لا تستنير ولا تكتمل إلاّ بالعلم، إلا وانّ العلم لا يحصل إلا بالتّعلم، ثم التّعلم في الصّغر كالنّقش على الحجر ...فعلى كل عاقل ان يثقف عقول أولاده بالتعليم، وان لا يتكل على إرسالهم الى من يعلمهم فقط بل يجعل لهم هو بنفسه حصة في الزمان الذي يمكنه ان يحادثهم فيها محادثة العاقل للعاقل. "[34]

خامسا- موقف ابن سماية من التجنيد الإجباري للجزائريّين:

من المواقف المشهودة للشيخ ابن سماية على خلاف رفاقه من المصلحين[35]، موقفه الصارم من قانون التجنيد الإجباري الذي اقترحه ميسيمي ووافقت عليه الحكومة بغرض تجنيد الشبان المسلمين الجزائريين في صفوف الجيش الفرنسي ومن ثم إقحامهم في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل كما يقال .

ويحمل موقفه بعدين، ديني وسياسي،فالبعد الدّيني استلهمه ابن سماية من النصوص الدينية التي لا تسوّغ بأي حال مشاركة المسلمين في جيوش غير

إسلامية، اما البعد السياسي فقد عبر عنه ابن سماية بضياع جنسية الأمة الجزائرية، من خلال تحقيق الاندماج وهو الموقف الذي أيده تيار النخبة المفرنسة.

كتب عمر بن قدور [36] في جريدة "الحضارة "التركية مقالا مطوّلا حول موقف عبد الحليم بن سماية من قانون التجنيد الاجباري، في العدد 70 المؤرخ في 8 اوت 1911 م، وهو بعد ان اشار الى عدم مبالاة الادارة الاستعمارية بموقف الجزائريين يتناول تفاصيل اللقاء الذي جرى امام المجلس البلدي للجزائر العاصمة، حيث "دخل رئيس المجلس المسيو "دوغلان" وجلس في كرسي الرئاسة وافتتح بقوله "ان الحكومة الفرنسية رأت الآن ان تحشر ابناء المسلمين المراهقين تحت لوائها الحربي، تنفيذا لمشروع المسيو ميسيمي وزير الحربية، وانها وجهت الى الوالي العام في هذا الشأن امرا تحثه على استشارة المجالس البلدية في الاقطار الجزائرية ....ولما اتنم شيخ البلدية مقاله قام الاستاذ العالم العلامة عبد الحليم بن سماية البقية الصالحة والجهبذ الناسك ...وخاطب الملا الاسلامي قائلا : تريدون مني ان اتكلم بالنيابة ام لا تريدون ذلك فاصمت ؟ فأجابه الملأ بلِسان واحد :تكلم ايها الاستاذ،فتقدم جنابه وشرع في الكلام شروعا جميلا واتى على خط مستقيم واستدل بآيات قرآنية على ان المسلمين اذا ارادوا الخدمة العسكرية للدولة الفرنسوية لا يكونون مسلمين بجميع معاني الكلمة، ولو نالوا من الحرية ما يخول نبغائهم التربع في دست رئاسة الجمهورية. ودعا جنابه الى ان الحرية والحقوق السياسية اذا منحت للمسلمين مقابل تجنيدهم تكون هناك الضربة القاضية على القومية الدينية والجنسية، اذ يقع اندماجهم بالأمة الفرنسوية نهائيا [37].

ولما أسهب في الخطاب محتجا ومعارضا انبرى له فئة من فئة المتفرنجين احد زعمائها، وخاطب رئيس المجلس البلدي بقوله :قد اسهب في الموضوع على حين ان المسالة لا علاقة لها بفلسفة القرآن ....فأجابه الاستاذ الخطيب :"اني اتكلم مع جنابه وإلا فتكلموا انتم معشر الخشب المسندة " [38].

يضيف ابن قدور "قال هذا واستأنف السير خارجا من قاعة المفاوضة، فاسترجعه رئيس المجلس مستأنفا لهذا الشأن قائلا له: انت الذي تتكلم واني لا

اصغي لأحد من هذه الجماعة، واني لمسرور بك جدا ...فتمكن الاستاذ عبد الحليم من تمام كلامه، ولما اتمه صاح الاعيان بانهم موافقون تمام الموافقة على احتجاجه ورفضه المشروع [39].

الخاتمة:

لاشك أنّ الفترة التي عاصرها الشّيخ بن سماية كانت حافلة بالأحداث الكبرى في الجزائر وخارجها، أثرت في الشيخ بن سماية كما أثرت في بني جيله، وصنعت مواقفه من مجمل قضايا عصره، فازدياد الهيمنة الاستعمارية وسطوة الحضارة الغربية في جميع مناحي الحياة اليومية حوله، كان لها بالغ الأثر في عملية البحث عن الذّات واستشارة التّراث، والاحتكاك بأساطين الحركة الإصلاحية وانتاجاتهم، والنّسج على منوالهم في سبيل انجاز النّهضة المنشودة، ولئن لم يكتب لتلك الحركة الإصلاحية التي رافقها وهو ورفاقه من أن تؤتي ثمارها في حينها، فقد كانت لبنة هامّة في صرح الحركة الإصلاحية التي ستتولى جمعية العلماء رعايتها لاحقا بقيادة رائد الإصلاح والنهضة الشيخ عبد الحميد بن باديس ورفاقه.

يقول الأستاذ محمد على دبّوز « كان بن سماية واسع الأفق، يقرأ الجرائد العربيّة الكبرى والفرنسيّة، الواردة من كل الأقطار العربيّة، ويعرف أحداث العالم، ويهتم كل الاهتمام بالعالم الإسلامي كله، ويتمنّى له النهوض والتحرّر من الجهل ورقة الدين والاستعمار، كان واسع الوطنيّة، لا يدين بالقوميات الضّيّقة يرى العالم الإسلامي كلّه وطنه والمسلمون كلّهم قومه، طريقه في الإصلاح هو طريق الشّيخ محمد عبده إصلاح النفوس بالدّين الصّحيح، والقضاء على البدع وتحسين طرق التّعليم بالعربيّة، وإنشاء شباب مسلم عربي ممتلئ بدينه، يفهم القرآن ويجعله دستوره[40].

الملاحق:

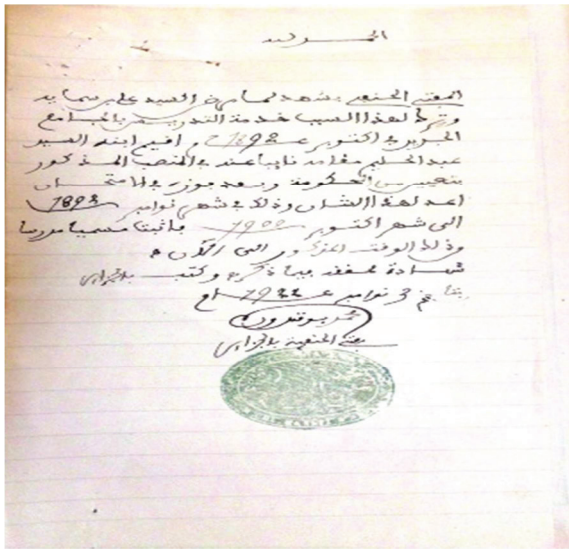

الملحق رقم 1:إفادة المفتي بوقندورة حول تثبيت الشيخ عبد الحليم بن سماية مدرسا بالجامع الجديد .

المصدر: أرشيف ما وراء البحار باكس اون بروفانس ANOM

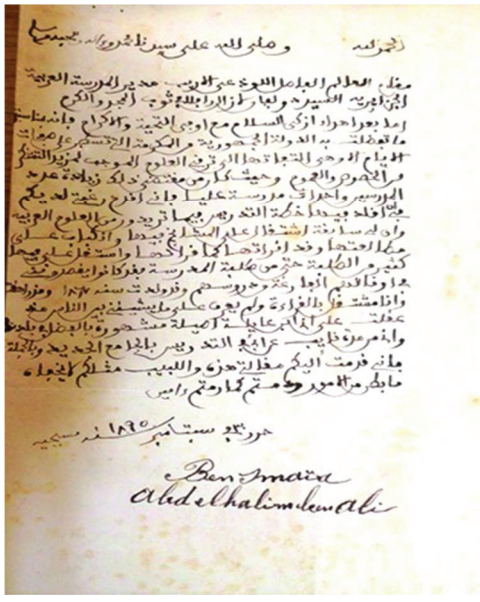

الملحق 2: طلب من الشيخ بن سماية للالتحاق بسلك التدريس بالمدرسة الثعالبية في سبتمبر 1895م.

المصدر: ارشيف ما وراء البحار باكس اون بروفانس(فرنسا) ANOM

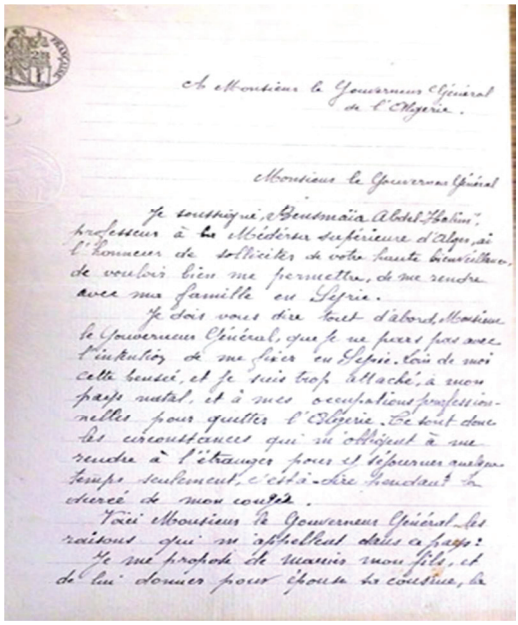

A Monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie.

Monsieur le Gouverneur Général

Je soussigné, Benmaïa Abdel Hakim, professeur à la Médersa supérieure d'Alger, ai l'honneur de solliciter de votre haute bienveillance, de vouloir bien me permettre, de me rendre avec ma famille en Syrie.

Je dois vous dire tout d'abord Monsieur le Gouverneur Général, que je ne pars pas avec l'intention de me fixer en Syrie. Loin de moi cette pensée, et je suis trop attaché, à mon pays natal, et à mes occupations professionnelles pour quitter l'Algérie. Ce sont donc les circonstances qui m'obligent à me rendre à l'étranger pour y séjourner quelque temps seulement, c'est-à-dire pendant la durée de mon congé.

Vous Monsieur le Gouverneur Général les raisons qui m'appellent dans ce pays:

Je me propose de marier mon fils, et de lui donner pour épouse la cousine, la

الملحق 3: رسالة الشيخ بن سماية الى الحاكم العام بخصوص طلب رخصة السفر إلى سوريا المصدر: أرشيف ما وراء البحار باكس اون بروفانس ANOM

الهوامش:

1- محمد عبده من مشاهير زعماء الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث، ولد بمصر سنة 1849م،التحق بالأزهر وتخرج بالشهادة العالمية، التحق بثورة عرابي وعاصر باعث النهضة الحديثة جمال الدين الأفغاني وناضل إلى جانبه في نطاق حركة الجامعة الإسلامية، أسسا معا جريدة العروة الوثقى، عاد الى مصر وانتقل إلى الإصلاح الاجتماعي والتربوي، توفي بمصر سنة 1905،من أهم أعماله رسالة التوحيد، للمزيد انظر: محمد عمارة :**الشيخ محمد عبده، مجدد الإسلام**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،د.ت.

2- ولد الشيخ محمد رشيد رضا بلبنان في سنة 1865م،ويعد من أقطاب حركة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث، ومن أهم واخص تلامذة الشيخ محمد عبده، من أهم أعماله تأسيس مجلة المنار التي استمرت من 1898 الى 1939، للمزيد انظر : إبراهيم احمد العدوي:**رشيد رضا الامام المجاهد**، الدار المصرية القاهرة، 1964م.

3- عبد المجيد بن عدة : الخطاب النهضوي في الجزائر1925-1954، أطروحة دكتوراه بإشراف د.ناصر الدين سعيدوني، جامعة الجزائر،2004-2005، ص73.

4- عبد الرحمان الجيلالي: **تاريخ الجزائر العام**،ج4،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،دار الثقافة،بيروت،لبنان، ط2، 1982، ص404.

5- عثرنا في احدى الوثائق مؤرخة في 20 ماي 1926 بمناسبة تقليده وسام الشرف ان بن سماية ولد بتاريخ 10 جويلية 1866،وفي طلبه للوظيفة وبخط يده يذكر بن سماية انه من مواليد 1867 المصدر :archives ANOM,14H44

6- عبد الرحمان الجيلالي: **المرجع السابق**، ص406.

7- أرشيف ما وراء البحارANOM,14H44 ، مراسلة رقم 11491 مؤرخة في 04 نوفمبر1930

8- أرشيف ما وراء البحارANOM,14H44 وثيقة، رقم 223 مؤرخة في 19 اكتوبر 1930

9- عبد الرحمان الجيلالي : **تاريخ الجزائر**....المرجع السابق، ص 420.

10- archives ANOM,14H44

11- انظر الملحق رقم :01

12- archives ANOM ,op cit .

13- عبد الرحمان الجيلالي : المرجع نفسه، ص406.

14- تتضمن وثيقة التقييم مختلف الجوانب التربوية كالمهارات القيادية والدقة والثقة في النفس والتحكم بالتلاميذ والمواظبة. المصدر : ARCHIVES AN O M 14H44

15- .ARCHIVES a.n.o.m ,ibid

16- طالبي : **ابن باديس حياته وآثاره** ج1 دار الأمة 2009 ص 29.

17- عبد الرحمان الجيلالي، نفس المرجع والصفحة.

18- الشهاب، م9، ج2.

19- المهدي البوعبدلي : **جوانب مجهولة من زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر 1903**، الأصالة، العددان 54- 55، مايو 1978، ص81.

20- سعد الله ابو القاسم : الحركة الوطنية الجزائرية، ج2.....

21- سعد الله ابو القاسم: **بحوث في التاريخ العربي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت –لبنان، ط1، 2003،،ص 116.

22- محمد رشيد رضا : **تاريخ الأستاذ الإمام**، ج2 ط/القاهرة 1344ه، ص 617.

23- عبد الرحمان الجيلالي : تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق، ص 407.

24- للمزيد انظر : -عمار هلال : **الهجرة الجزائرية نحو الولايات العثمانية،(1847-1918)**، مجلة الثقافة، العدد82، يوليو-أغسطس 1984

25- انظر نص الرسالة في الملحق رقم : 07 المصدر ANOM 14H44

26- مراسلة مصلحة الشؤون الأهلية للحاكم العام بتاريخ 26مارس 1912،تحت رقم 300،الملف ANOM 14H44

27- عبد الرحمان الجيلالي : **تاريخ الجزائر**....المرجع السابق، ص 401.

28- جاء في نص المراسلة الموجهة الى مدير اكاديمية الجزائر ما يلي :"بمقتضى قرار 20 نوفمبر الجاري (1911) والمستند على رأيكم بالموضوع، فاني ارخص للسيد عبد الحليم بن سماية الأستاذ بالمدرسة

لزيارة سوريا لأسباب عائلية" المراسلة رقم 8191 المؤرخة في 27 نوفمبر 1911م ملف ANOM 14H44

29- عبد الحليم بن سماية :**الفرق بين الصوفية والمتصوفة، كوكب افريقيا،** العدد، 17، 1911/03/202.

30- ابن سماية : نفس المصدر.

31- ابن سماية : "القوة الجاذبية"،جريدة المغرب،عدد 4،(1903/03/21).

32- المغرب، العدد 1، 10 افريل 1903.

33- المغرب، العدد 4،21 افريل 1903.

34- نفس المصدر.

35- لم يجرؤ رواد الإصلاح والعلماء الجزائريين على عهده في الخوض في موضوع التجنيد الإجباري، خشية سطوة الإدارة الاستعمارية، وذهب بعضهم الى حد الوقوف إلى جانب الفرنسين في الحرب ودعوة المسلمين للمشاركة بها، واستصدروا فتاوى حول الموضوع كما فعل الشيخ المولود بن الموهوب واغلب شيوخ الطرق الصوفية .للمزيد انظر : le chatelier ;revue du monde musulman **les musulmans français et la guerre** ,dec 1914,p 169,

36- ولد عمر بن قدور بضواحي العاصمة حوالي عام 1886 م، تعلّم في الكتّاب القرآني في سن مبكرة، ويبدو انّه دخل المدرسة الشّرعية الفرنسيّة بعد ذلك، في أوائل القرن العشرين. تتلمذ على الشّيخ عبد القادر المجاوي و عبد الحليم بن سماية .انشا جريدة "الفاروق"، توجّه إلى الزّيتونة، وزار مصر، وكتب في جريدة اللّواء وعمره عشرون سنة فقط، كما كتب مبكّرا في الحاضرة التونسية والحضارة العثمانية، تدلّ كتاباته ومقالاته الصّحفية على نضج وعيه وإدراك رسالته تجاه امته ودينه، وقد ناله بسبب مواقفه الوطنية والقومية العنت من قبل السلطات الاستعمارية أثناء الحرب العالمية الأولى. في الفكر والكتابة. للمزيد انظر : مولود قرين :**عمر بن قدور الجزائري،دوره في الحركة الوطنية الجزائرية، (1886-1932)**2ج،دار الخليل،الجزائر،2013.

37- ابن العقون : **الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر** ج1،م.و.ك، الجزائر، 1984، ص ص 34-1.35

38- نفس المرجع

39- نفسه، ص 35.

40- محمد علي دبوز : **نهضة الجزائر وثورتها المباركة**، المطبعة العربية، غرداية، ص 124 .